محاضرة في الأدب الأندلسي / الدراسة الأولية / أعدها الدكتور علي مطشر نعيمة

عنوان المحاضرة : مقدمة كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه

يعد كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه من أشهر المؤلفات الأندلسية التي تركت صدًى كبيرا لدى الدارسين لما يعكسه الكتاب من قدرة كبيرة لدى مؤلفه على تمثل الثقافة المشرقية وإعادة تبويبها على وفق ذوق أندلسي خاص .

لقد تضمن كتاب العقد مجموعة من الأفكار تشكل مجتمعة أسساً اعتمدها ابن عبد ربه في بناء عقده , ويمكن إجمال هذه الأفكار بما يأتي :

1 – حدد ابن عبد ربه في أول مقدمة عقده الاتجاه الذي سيخوض فيه قائلا : ((إنّ أهل كل طبقة , وجهابذة كل أمة , قد تكلموا في الأدب , وتفلسفوا في العلوم على كل لسان , ومع كل زمان , وإنّ كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني المتقدمين , واختيار جواهر ألفاظ السابقين , وأكثروا في ذلك حتى احتاج المُختصَر منها إلى اختصار , والمُتخيَّر إلى اختيار)) يبين ابن عبد ربه أنَّ الاختيارات ستكون موضوعا لكتابه تدفعه إلى ذلك حاجة كثير من كتب الاختيارات إلى اختيار آخر و اختصار جديد .

2 – يشير ابن عبد ربه إلى محفز آخر للخوض في ميدان الاختيارات قائلا : ((ثم إني رأيتُ آخر كل طبقة , وواضعي كل حكمة ومؤلفي كل أدب , أعذب ألفاظا وأسهل مذهباً وأوضح طريقة من الأول , لأنه ناكص متعقب , والأول بادئ متقدم)) , فالطبقة الثانية من مؤلفي كتب الاختيارات أعذب ألفاظا ممَّن تقدمهم لعله يشير بذلك إلى تأثير العامل الحضاري في أساليب الكتابة , فكانت سهولة مذهب المتأخرين في كتب اختياراتهم , وحاجة تلك الكتب إلى اختصار دافعين متوازيين لابن عبد ربه لتأليف عقده الجديد والفريد .

3 – وكان ابن عبد ربه منصفا في تقدير جهود المتقدمين والمتأخرين في ميدان الاختيارات عندما قال : ((فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين الإنصاف , ثم يجعل عقله حكما عادلا وفيصلا قاطعا , فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ... فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة , ومنهاج من الحكمة))، فابن عبد ربه يؤكد أهمية الخوض في هذا الميدان وصعوبته في آن إذ أنّه لا يتهيّأ لأي أحد إلا من امتلك ناصية البيان .

4 – ويكشف ابن عبد ربه عن المنهج الذي اتبعه في تأليف عقده قائلا : ((وقد ألفتُ هذا الكتاب وتخيرتُ جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان , فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب)) , لقد أراد ابن عبد ربه أن يكون واحداً من جهابذة أمته بعد أن استشعر قدرته على الخوض في ميدان الاختيارات فخرج بعقد ثمين يمثل خلاصة واختصاراً لجواهر الآداب وجوامع البيان .

5 – ويحدد ابن عبد ربه بدقة الجانب الاندلسي من عقده قائلا : ة((وإنما لي فيه تأليف الإخبار , وفضل الاختيار , وحسن الاختصار , وفرش في صدر كل كتاب)) لقد تركز جهد ابن عبد ربه في تنسيق الإخبار المختارة , واختيار النصوص الأدبية , واختصار الحوادث والروايات التاريخية , ومقدمات نثرية في مستهل كل باب أطلق عليها ابن عبد ربه مصطلح الفرش وهو من ابتكارات مؤلف العقد .

6 – وتتجلى الأمانة العلمية كذلك في قوله : ((وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء , ومأثور عن الحكماء والأدباء)) .

7 – ويؤكد ابن عبد ربه قيمة مجهوده في عقده مدافعا عن اختياراته بالقول : ((واختيار الكلام أصعب من تأليفه , وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله)) .

8 – وتتجلى الناحية التنظيمية في الكتاب في قول مؤلفه : ((فتطلبتُ نظائر الكلام وإشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال , ثم قرنتُ كل جنس منها إلى جنسه , فجعلته باباً على حدته , ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب , ونظائره في كل باب)) .

9 – وكان مؤلف العقد يضع قارئه موضع اهتمامه دائما لذلك نسمعه يؤكد في مقدمة عقده قائلا : ((وحذفتُ الأسانيد من أكثر الإخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز)) لكننا نسجل على مؤلف العقد موقفاً كنا في حاجة ماسة فيه إلى إسناد الخبر , كان ذلك في تفسير تسمية المعلقات بهذا الاسم حتى عُدَّ قوله عن تسميتها اجتهاداً يُنسَب إليه في عقده لكننا نرجح أنه نقل عن أفواه علماء لم ترد أسماؤهم بسبب حذف سند خبر المعلقات .

10 – ويحرص ابن عبد ربه على إن يكون عقده فريداً في اختياراته لذلك قال : ((وقد نظرتُ في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرفة في فنون الإخبار , ولا جامعة لجمل الآثار , فجعلت هذا الكتاب كافياً شافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة , وتدور على ألسنة الملوك والسوقة)) في دلالة على رغبة مؤلف العقد في البحث عن كل جديد . والوصول بعقده إلى إن يظهر بأكمل صورة من البهاء والجمال .

11 – ويلتفت ابن عبد ربه إلى خصوصية الشعر وأهميته في كتب الاختيارات ليس على مستوى الاختيار فحسب بل على مستوى النظم , قال ابن عبد ربه : ((وحليتُ كل كتاب منها بشواهد من الشعر , تجانس الإخبار في معانيها , وتوافقها في مذاهبها , وقرنتُ بها غرائب من شعري , ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ لمغربنا على قاصيته , وبلدنا على انقطاعه , حظاُ من المنظوم والمنثور)) ليكون الحضور

الأندلسي في ميدان جديد هو الشعر في رسالة أدبية تحمل فكرة إجادة الأديب الأندلسي / مؤلف العقد في ميادين النثر والشعر والاختيار الأدبي .

12 – يعلل ابن عبد ربه اختاره العقد عنواناً لكتابه قائلا : ((وسميته كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام , مع دقة السلك , وحسن النظام)) , وهو عنوان نلمح فيه نشوة الإبداع عند المؤلف , فضلا عن الجمال , والترتيب الرائع , والإخراج الخلاب .

13 – ويشرح ابن عبد ربه هيكلية عقده قائلا : ((وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً , كل كتاب منها جزآن , فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً , وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد)) وبذلك الإخراج المحكم ظهر كتاب العقد أندلسياً في مظهره , وأندلسياً ومشرقيا في محتواه . وليس كما زعم الأديب المشرقي الصاحب بن عباد عندما أطلق حكماً نقدياً قاسياً على كتاب العقد قائلا : ((ظننتُ أنَّ هذا الكتاب يشتمل على شئ من إخبار بلادهم وإنما هو مشتمل على إخبار بلادنا لا حاجة لنا فيه فردوه)) , لقد غفل الصاحب بن عباد عن جوانب أندلسية كثيرة في العقد منها :

أ – إنّ الاختيار وحده ضرب من التأليف النقدي كما يقول الدكتور عناد غزوان .

ب – إنّ ابن عبد ربه ((أراد من خلال تأليف عقده إن يكون خزانة عامة للثقافة المشرقية لتكون في متناول الأندلسيين تغنيهم عن تتبع تلك الثقافة في مصادرها العديدة)) كما يقول الدكتور نافع محمود .

ج – لقد كان العقد انطلاقة أولى للوقوف بوجه الزحف المشرقي الهائل كما يقول الدكتور عبد الله ثقفان .

د – إنّ كتاب العقد كما يبدو لنا كان محاولة رائدة باتجاه الانفصال الأدبي في الأندلس عن الثقافة المشرقية بمعنى بداية ظهور وعي الذات عند الأديب الأندلسي ورفض التقليد للأدب المشرقي وتنامي الشعور بالأندلسية فكان ظهور محاولات التحدي للمشارقة في ميدان الأدب بدافع المحبة لكل ما هو مشرقي ومحاولة التفوق عليه فكان ظهور كتاب العقد بفرادته وبذوقه الأندلسي .

المصادر :

1 – اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري د نافع محمود

2 – الأدب الإقليمي في الأندلس منطلقه , غاياته , أعلامه , د. عبد الله علي ثقفان , مجلة الأحمدية , دبي , ع6 . 2000 .

3 – الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة , د. منجد مصطفى بهجت

4 – مظاهر الجرأة في الشعر الأندلسي , علي مطشر نعيمة , أطروحة دكتوراه , كلية التربية للعلوم الإنسانية , جامعة البصرة , 2009 .